



منذ اندلاع الثورة السورية قبل عام - وحتى قبل ذلك- في الحقيقة ونحن نلاحظ أن المحللين السياسيين والإعلاميين على اختلاف مشاربهم يتفاون الحديث عن طائفية النظام الحاكم وعن الضيم الذي يعانيه أهل السنة، وإذا حدث أن تناول متذمّل أو كاتب هذا الموضوع ولو بإشارة سيقت له تهمة الطائفية وصُور بمظهر المتآمر على الوطن ووحدته وأمنه واستقراره، فهؤلاء يسوقون صورة بلد متخاص بعيid عن الوضع الطائفي ينعم فيه الجميع بالمساواة السياسية والقانونية والاجتماعية بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية والمذهبية.

وهذه مغالطة كبيرة بل هي كذب صريح، فالجميع يعلم أن الأقلية النصرية - التي أصبحت تحمل اسم العلوبيين، وهي طائفة شيعية مغالية في معتقداتها بحيث لا تمت بصلة إلى الإسلام في نظر المسلمين- التي تنتمي إليها عائلة "الأسد" هي التي تحكم سوريا منذ الانقلاب العسكري الذي قام به حافظ الأسد في 1970م، فهي تستأثر بمناصب القيادة السياسية والعسكرية والأمنية والإدارية، وتهيمن على الاقتصاد والإعلام، **أما الأغلبية المسلمة من أهل السنة فلا نصيب لها في كل هذا سوى مناصب ثانوية تُمنَح لبعض المصلحيين الذين يدورون مع الحاكم حيث دار ويقنعون بالفتات المتتساقط من موائدِه، وهذه حقيقة لا يماري فيها أحد لوضوحها وثباتها منذ أربعين سنة**، ولأنَّ النظام حكم طول هذه الفترة بالحديد والنار، فقد جعل من ثوابته إنكار "الطائفية"، فهو يمارسها على جميع الأصعدة ويلعثُها في تصريحاته، ويعتبرها من الناحية النظرية مرفوضة، وهي خطأ السياسي الذي لا يحيد عنه، والخاسر الأكبر هم أهل السنة الذين يُشكّلون 80 بالمئة من السكان أو أكثر ويعاملون كأقلية عليها عن ترضى بالمواطنة من درجة دنيا، إلى درجة أن يصبحوا يتمنّون أن يحضروا بامتيازات الدروز والمسيحيين... فهؤلاء في مجملهم حرّاس الطائفية والسياج الواقي للنظام من الأغلبية المسلمة السنوية، هكذا كان النظام البعشي، ولم تغير الثورة من ذلك شيئاً بل ازداد تفوقاً على طائفته، ومن المؤسف أنَّ الأقليات انحازت للطاغية رغم بطشه وإجرامه ولم تلتحق بالثورة التي لا تنادي بطالقانية أخرى وإنما تدعو إلى الحرية والكرامة وتحرير البلاد من حكم الأسرة المتسلطة الفاسدة.

**أجل، رأينا أفراداً من العلوبيين والمسيحيين ينضمون للثورة، ورأينا بعض المنتسبين لأهل السنة يتسبّبون بالنظام المتهاوي رغباً ورهباً،** وحرصن الشعب التائر على إعلانها ثورة سلمية وطنية لا مكان فيها للطائفية حتى لا تستنسخ خطيئة النظام البعشي مرة أخرى، وقد خصّصوا إحدى جمع الاحتجاجات الشعبية لواحد من الرموز الوطنية؛ "الشيخ صالح العلي" وهو علوي كان ممن قادوا المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي، وضم المجلس الوطني السوري ناشطاً علويًا، وأعلنت الفنانة فدوى

سليمان انضمماها للثورة، وهي علوية، فهذه من علامات التماسك الوطني في الثورة السورية التي يعي أبناؤها جداً لعب السلطة الاستبدادية على العنصر الطائفي لمزيف وحدة المعارضة وتشتيت قواها والتشویش على الانتفاضة السلمية، وقد فهم الجميع الرسائل الضمنية التي يبعث بها النظام للأطراف الداخلية والإقليمية والعالمية، والتي تستبطن التهديد بتفجير المجتمع السوري لتمتد الأزمة إلى الجوار المتشكل مثل سوريا من طوائف ومذاهب وأديان متعددة، لكن الحقيقة المؤسفة أن انحراف العلوبيين في الثورة محدود جداً رغم نداءات العقلاء لهم من جهات وطنية عدّة للتخلّص من السلطة المستبدّة والالتحاق بالمطالبين بالحرية والكرامة في ظل نظام جديد يتسم بالتعدّدية والعدل في إطار اللحمة الوطنية التي عاش السوريون في كنفها زمناً طويلاً ولم يعُكّر صفوّها سوى النظام التي حارب كلّ أشكال التعدّدية واختار الطائفية وفرضها بالقوة والإكراه على عموم الشعب، وكان المتضرر الأكبر منها هم أهل السنة الذين غدوا الأغلبية المقهورة التي يجب عليها تحملّ الوضع بصمت واستكانة، فإذا اشتكت منه شكاية مشروعة اتهمت هي بالطائفية، كما هو الحال الآن تماماً، وقد زاد الأمر خطورةً منذ تحالف النظام السوري مع نظيره الإيراني، وببدأ التشيع يسري في دمشق وغيرها برعاية رسمية، وإن كانت ضمنيّة غير صريحة وتزامن ذلك مع التضييق الثقافي والدعوي على الأوساط السنّية، وتحدث التقارير والشهادات الحية عن الاعتداء على رموز أهل السنة، فلم ينجُ حتى الأموات في قبورهم، وطال سوء المعاملة قبرى شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وقد حدثني بذلك صديق وقف على ذلك منذ سنوات قليلة.

إنَّ أهلَّ السُّنَّةَ فِي سُورِيَّةِ كَمَا فِي غَيْرِهَا مِنَ الْبَلَادِ لَا يَدْعُونَ إِطْلَاقًا إِلَى "الْتَّهَيْرِ" الْمَذْهَبِيِّ، خَلَافًا لِمَا تَزَعَّمُ الدِّعَاهُوَاتُ بِالْمَغْرِبَةِ، وَإِنَّمَا يَطَّالِبُونَ بِالْمَسَاوَةِ فِي إِطَارِ نَظَامٍ سِيَاسِيٍّ وَاجْتَمَاعِيٍّ لَا يُظْلَمُ وَلَا يُؤْقَسُ وَلَا يُقْرَبُ وَلَا يُطْغَى فِيهِ أَحَدٌ بِسَبَبِ مَذْهَبِهِ، وَلَا تَسْتَأْثِرُ فِيهِ الْأَقْلَيَةُ بِالسُّلْطَةِ وَالْأَمْتِيَازَاتِ فِي حِينٍ تُهْضَمُ حُقُوقُ الْأَغْلَبِيَّةِ، فَهَذَا خَلَلٌ مَجَمُوعِيٌّ لَا يَقْرَأُ دِينٌ وَلَا شَرِعَةٌ عَادِلَةٌ وَلَا عَقْلٌ سُوِّيٌّ، فَمَنْ حَقٌّ الْأَغْلَبِيَّةُ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَنْ تَكُونَ مَرْجِعِيَّتُهَا الْحَضَارِيَّةُ هِيَ السَّائِدَةُ عَلَى أَنْ تُحْفَظَ الْخَصُوصِيَّاتُ الْدِينِيَّةُ وَالْقَوْفَافِيَّةُ لِمُخْتَلِفِ الْأَقْلَيَاتِ مِنْ أَبْنَاءِ الْبَلَدِ، فَهَذَا هُوَ الضَّمَانُ الْحَقِيقِيُّ لِلْاِسْتِقْرَارِ السِّيَاسِيِّ وَالْاجْتَمَاعِيِّ، وَهُوَ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمِينَ دِينٌ يَتَبَعِّدُونَ اللَّهَ بِهِ، فَضَلَّاً عَنْ أَنَّ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ الْأَغْلَبِيَّةِ وَالْأَقْلَيَةِ أَوَّلَى الْأَقْلَيَاتِ سَوَاءً كَانَتْ دِينِيَّةً أَوْ مَذْهَبِيَّةً أَوْ سِيَاسِيَّةً تَحْكُمُهَا هَذِهِ الْقَاعِدَةُ فِي جَمِيعِ الدُّولِ الْمُتَحَضَّرَةِ وَالْمُلْزَمَةِ بِأَسْسِ الْعَدْلِ، بَيْنَمَا يَغْيِبُ هَذَا الْاِسْتِقْرَارُ وَتَضَطَّرُ الْعَلَاقَاتُ الْاجْتَمَاعِيَّةُ حِينَ تَسْتَنِدُ الدُّولَةُ إِلَى "دِكْتَاتُورِيَّةِ الْأَقْلَيَةِ"، وَيَحْدُثُ نَفْسُ الشَّيْءِ حِينَ تَنْتَرِّكُ الْأَغْلَبِيَّةُ لِحُقُوقِ الْأَقْلَيَةِ وَتَهْضِمُهَا وَتَعْمَلُ عَلَى طَمْسِ هُويَّتِهَا، وَهُوَ مَا يَحْدُثُ لِأَهْلِ السُّنَّةِ فِي إِرَان، فَفِي ظَلِّ النَّظَامِ "الْإِسْلَامِيِّ" الَّذِي أَفَاقَهُ الْخَمِينِيُّ لَمْ يَتَبُّأْ مَنْصَبَ الْوَزَارَةِ مُسْلِمٌ سُنِّيٌّ وَاحِدٌ رَغْمَ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةَ أَقْلَيَةً كَبِيرَةً هُنَاكَ، وَلَا أَعْلَمُ أَنَّ لَدِيهِمْ مُمَثِّلِينَ فِي الْبَرْلَمَانِ، بِخَلَافِ الْيَهُودِ الَّذِينَ لَهُمْ فِيهِ حُضُورٌ رَغْمَ عَدْدِهِمُ الْقَلِيلِ فِي الْبَلَدِ، وَقَدْ أَصْبَحَ مَعْلُومًا أَنَّ طَهْرَانَ هِيَ الْعَاصِمَةُ الْوَحِيدَةُ فِي الْعَالَمِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا مَسْجِدٌ لِأَهْلِ السُّنَّةِ.

يُندِنُ أَعْدَاءُ الثُّورَةِ السُّورِيَّةِ حَوْلَ مَخَاطِرِ الطَّائِفَيَّةِ وَيَدْعُو بَعْضُهُمْ إِلَى الْاِلْتَفَافِ حَوْلَ بَرَنَامِجِ عَلَمَانِيِّ يُؤْصِيُ المرجعية الدينية في النّظام المستقبلي، ويتصاير كثيرون بالدولة المدنية، وكلّ هذا يمكن تلخيصه في محاولة زجّ أهل السنة في الركن الضيق حتى يبقوا أكثرية مغلوبة بل مسحوقة تئن تحت رحمة الأقليات، ولا شكّ أنّ أوضاع العراق لا تعزب عن المسلمين السوريين وتدعواهم إلى البصيرة والوعي العميق بالتعقيبات السياسية، فالنظام الذي نصبه الأميركيان في بغداد طائفي بامتياز ومع ذلك يضم الآذان بالتحذير من الطائفية ويتهم أهل السنة بها، وهم ضحايا سياساته الإقصائية والإجرامية.

إنَّ الثُّورَةَ السُّورِيَّةَ الْمُبَارَكَةُ مَا زَالَتْ مُلتَفَّةً حَوْلَ مَشْرُوعٍ وَطَنِيٍّ مُتَمَاسِكٍ يَهْدِي إِلَى إِسْقَاطِ الطَّاغِيَّةِ وَنَظَامِهِ، وَهِيَ تَعْمَلُ يَوْمًا عَلَى اسْتِقْطَابِ جَمِيعِ الطَّوَافَاتِ بِغَضْبِ النَّظَرِ عَنْ اِنْتِمَاءِهَا، وَهَذِهِ مَسَأَلَةٌ إِيجَابِيَّةٌ تُشَكَّرُ عَلَيْهَا، لَأَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ لِكُلِّ أَبْنَاءِ الْبَلَدِ الصَّالِحِينَ، وَالْخَطُوَةُ الْحَاسِمَةُ مُنْتَظَرَةٌ مِنَ الطَّوَافَاتِ الَّتِي مَا زَالَتْ مُتَخَنِّدَةً مَعَ النَّظَامِ رَغْمَ جَرَائِمِهِ الْبَشِّعَةِ وَكَانَهَا تُصْفَى إِلَى الَّذِينَ يُخْوِفُونَهَا مِنْ حَمَلَاتِ الْاِنْتِقَامِ مِنْهَا عَنْ اِنْتِصَارِ الثُّورَةِ، وَهُمْ يُوْمَئُونُ هَذِهِ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ، رَغْمَ أَنَّ هُؤُلَاءِ

أصحاب دين وأخلاق ومرءة، تربوا على الصفح والمسامحة وجمع الشمل والتماس الأعذار للمخطئين، فهل حدثت مذابح في تونس أو مصر أو ليبيا استهدفت أنصار الأنظمة البائد؟ إنما وقع ذلك في إيران بشكل واسع بعد الإطاحة بالشاه، بإشراف رجال الدين الشيعة، أما علماء أهل السنة فدأبُهم الدعوة إلى الحسن والتجاوز عن المسيئين واحترام حقوق الإنسان والاحتكام إلى القضاء المستقل، فأي الفريقين أحق بالأمن؟ وأهل السنة ليس الغدر من شيمهم، وقد جرّبهم الناس في ذلك، فغير قليل منهم اصطفوا مع حزب الله في حرب 2006م ضد العدو الصهيوني المشترك متناسين الخلافات المذهبية، فكان الجزء أن حملت مليشيات حسن نصر الله السلاح – بعد انتهاء تلك الحرب – وشرعت في تطهير بيروت من أهل السنة لتصبح خالصة للشيعة، وقتلت من أقربائهم عدداً كبيراً، **فمن يصدق بعد شواهد الماضي والحاضر والنظرية والتطبيق أن أهل السنة طائفيون؟** أليست الطائفية الشيعية هي التي تجيش ضدّهم حكومة العراق وإيران وأنزعهما في المنطقة لمحاربة طلاب الحرية في سوريا وحشد التأييد السياسي والعسكري؟ هل تريد بغداد التي يحكمها نظام طائفي بامتياز أن يكرر تجربتها المأساوية في الشام، وهي التي تظلم أهل السنة وتضيق عليهم وتنعهم حتى من الشكوى تحت طائلة اتهمهم بالطائفية!!!

ستنتصر الثورة السورية – بإذن الله –، ولن تلفظ اليوم ولا غداً إلا من أصرّ على تسخير الأغلبية بسلط الأقلية، وتمادي في البغى والعدوان.

المصادر: